فى تجديد الفكر وتاريخ الأفكار

(٢)

دراسة فى علم تاريخ الأفكار *

للأستاذ الدكتور أحمد صدقى الدجانى

مدخل

إذا كان تجديد الفكر هو أحد مستلزمات تجدد الحضارة والعُمران فى الاجتماع الإنسانى ، فإن لتجديد الفكر وجهود المجددين " تاريخ " تجب معرفته وينبغى استحضاره عند القيام بهذا الأمر . وهذا التاريخ يركز فى المقام الأول على الأفكار التى أثرت فى حياة الناس،وحظيت بانتشار واسع فى أوساطهم ودفعتهم فى اتجاهات معينة . وهو يحاول التعرف على العلاقة القائمة بين أفكار الخاصة من علماء وفلاسفة ومفكرين وأدباء ومثقفين وطرق العيش الواقعية للناس ، مبيناً كيف تعمل الأفكار فى هذه الدنيا .

لقد شهدت دائرتنا الحضارية العربية الإسلامية فى القرن الأخير اهتماما بتجديد الفكر فيها وبتاريخ الأفكار ، تجلى فى صدور عدد من الكتب التى تناولت التجديد والمجددين . وسار قومنا فى هذا الاهتمام على منوال أجدادنا الذين عنوا بهذا الأمر وأرخوا للمجددين قرناً بعد قرن. وقد لاحظ أمين الخولى فى كتابه "المجددون فى الإسلام " " دورية " التجديد معتبراً إياه " ثورة اجتماعية دورية يقوم بها عارف بالحياة متصل بها وعميق الفكرة عنها " . وعرض فى هذا الكتاب على التعريف بتاريخ الأفكار من خلال عرض كتابى السيوطى والمراغى الجرجاوى عن المجددين .

يتداعى إلى الخاطر- ونحن نستحضر جهود علمائنا فى القرن الأخير فى حقل تاريخ الأفكار - مثلٌ على ذلك ما قام به الشيخ حسين المرصفى فى رسالته الموجزة " الكلم الثمان " التى شرح فيها " كلمات جارية على ألسنة الناس لهجوا بذكرها فى هذه الأوقات ، كلفظ الأمة والوطن والحكومة والعدل والظلم والسياسة

---

* ألقى هذا البحث فى الجلسة الثالثة من جلسات مؤتمر المجمع في دورته الثانية والستين يوم الثلاثاء ٢٩ من شوال سنة ١٤١٦هـ الموافق ١٩ من مارس (آزار) سنة ١٩٩٦م.

والحرية والتربيـــــة . وعـــرض لتطـــور مدلولاتها والأفكار التى تعبر عنها . كمـــا يخطر على البال جهد أحمد أمين فى كتابـه " زعماء الإصلاح فى العصر الحديـــث " وما قام به محمد إقبال فى " تجديد الفكـــر الدينى " ، وأبو الحسن الندوى فى " رجال الفكر والدعوة فى الإســـلام " ، وعبـــد المتعال الصعيدى فى"المجددون فى الإسلام"، وزكى نجيب محمود فى "تجديد الفكـــــر العربى " ، وفهمى جدعان فى " أســـــس التقدم عند مفكرى الإســـلام فى العـــالم العربى الحديث " ، و"ينابيع الفكر العـــربى المعاصر " لعبد الفتاح الديرى ، " وتـــلريخ موجز للفكر العربى " لحسين مؤنس .

إن جهود علمائنا هذه فى حقـــل تاريخ الأفكار تمهد الطريق أمام إســـهام عربى معاصر فى دراسة هذا التاريخ بمنـــهج علمى فى إطار ما يمكن أن نسميه " علـــم تاريخ الأفكار " الذى يشهد اليوم ازدهاراً فى بعض أوســـاط الحضـــارة الغربيـــة . وتدعونا هذه الدراسة من ثم إلى "تـأصيل" هذا الفرع من علم التاريخ مـــن خـــلال استحضار ما حفل به تراثنا مـــن عنايـــة بتاريخ تجديد الفكر والمجددين . وكم هـــو مفيد بين يدى القيام بهـــذه الدراســـة أن نتعرف على الإسهام الغربى فى بلورة علـــم تاريخ الأفكار، كما أن من الضـــرورى أن نكثف الدعوة بين المثقفين للعنايـــة بهـــذا العلم كى تحدث مراجعة لأحكام تصـــدر فى أوساطهم على العقل العربى " بقصوره" " وتناقضه " مستندة إلى شواهد تاريخيـــة مفصولة عن سياقها أو تقدم فى مجالٍ غـــير مجالها ، ومثلٌ على ذلك حدث فى نـــدوة علمية مؤخراً حين أصدر البعض حكمـــاً على الفكر السياسى العربى عبر العصـــور بأنه "يعانى اختلالاً أساسيا فى بنيته العامة" مستشهدين بآراء بعـــض الصوفيـــين فى "السياسة " والسياسيين " من حقب مختلفة دون الالتفاف لآراء ذوى الشـــأن مـــن علماء السياسة ودون اعتمـــاد الدراســـة المقارنة مع مجتمعات أخرى معاصرة .

الإسهام الغربى فى دراسة علـــم تـــاريخ الأفكار

فى تعرفنا على هذا الإسهام نعتمـــد على ما كتبه علماء غربيون عنوا بدراســـة هذا التاريخ ، وبخاصة كرين برنتـــون فى كتابه " أفكار ورجال " الذى نقلـــه إلى العربية محمود محمود ، وفرانكلين باومر فى

كتابه " الفكر الأوربى الحديث " الـــذى نقله إلى العربية أحمد حمـــدى محمـــود ، ويوهان هويزنجا فى كتابه " أعلام وأفكـلر نظرات فى التاريخ الثقافى " الذى نقلـه إلى العربية عبد العزيز جاويد وراجعه زكـــى نجيب محمود ، وميشيل فوكو فى مقالـــه "مغامرة السلب : الأدب وتاريخ الأفكار" التى نقلها إلى العربية أحمد عبـــد الحليـــم عطية .

ما هو تاريخ الأفكار ؟

هو محاولة للتعرف على العلاقات بين آراء العلماء والفلاسفة والمفكرين والمثقفـين فى الأمة وطرق العيش الواقعية للناس الذيـــن يحملون على عواتقهم النهوض بواجبـــات الحياة المدنية. ومهمة هذا التاريخ هى إدراك دور المذاهب والأفكار التى تدفع الناس فى اتجاه معين . فهو يحاول أن يوضح كيـــف تعمل الأفكار فى هذه الدنيا ، وهو مـــن ثم يهتم بالأفكار التى تحظى بانتشار واســـع على صعيد حياة النـــاس مـــن خـــلال الجماعات والحركات البشرية الكبـــيرة ، ولا يقتصر على أفكار القلة . ورغم أنـــه يدور داخل نطاق الفكر العقلانى إلا أنـــه يتناول أفكاراً ترتفع إلى درجـــة الإيمـــان والمعتقد . وهو يعرّف بالقيم التى جـــاءت من الماضى وبالتعليل التاريخى لكيفية تـــأثر الناس بهذه القيم ، ويسجل دوراً خاصـــاً لمبدعى الأفكار وللمثقفين الذين يقومـــون بنشر هذه الأفكار،ويوليهم عناية خاصة . ونصب عينيه أن يدرس العلاقة بين مـــا يقول الناس وما يقومون به فعلاً .

المشكلات الكبرى والأسئلة الدائمة:

يشغل تاريخ الأفكار بالآراء التى يعتنقـها الناس بشأن المشكلات الكبرى ، على حد قول كرين برنتون ، منـــها المشـــكلات الكونية التى تبحث عما إذا كان للعـــالم معنى فى مقدور البشر أن يدركوه ، ومـــا هو هذا المعنى ، ومنها المشكلات الخلقيـــة التى تبحث عما إذا كان لما نعمل ولما نريد أن نعمل معنى من المعانى ، وتبحث أيضـــاً فيما نعنى فعلاً بالخير والشر ، والجميـــل والقبيح . وقد أوضح برنتون أنه استهدف من كتابه " أفكار ورجال " شـــرح مـــا أحسته مجموعات كبيرة مـــن الرجـــال والنساء فى الغرب بشـــأن مـــا يتعلـــق بالإجابات عن المشـــكلات الكـــبرى فى مصير الإنسان . كما أوضح أن تـــاريخ الفكر عنده هو " مغامرات الأفكار " على

حد تعبير الفرث نورث هوايتهد ، وأنه يفضل طرية فيه أساسها " أن التعليم هو عرض المشكلات " على طريق أساسها " أن التعليم هو تثبيت الأفكار " .

العمل فى تاريخ الأفكار -:

إن رأى فرانكلين باومر يدور حول خمسة أسئلة وصفها بأنها " أساسية" وشرحها فى فصل من كتابه " الفكر الأوربى الحديث " جعل عنوانه " الأسئلة الدائمة " وقال عنها " إنها تمثل نظراتنا المتطورة إلى الله والطبيعة والإنسان والمجتمع والتاريخ " ، " وهى مكونات للرؤية الجامعة للحياة التى تعبر عنها الكلمة الألمانية weltanschauung ، وإن بزوغها بشكل متواصل فى الاجتماع الإنسانى يدعو إلى استنتاج " أن هناك عنصراً من الثبات وسط التغير التاريخى " . ولذا يمكن وصف هذه الأسئلة بأنها أساسية ودائمة . ويرى " باومر " أن تاريخ الأفكار ينكر أن هناك قوى لا تحس ولا تعقل مثل الكوارث الطبيعية أو التغيرات السكانية تقوم بدور ما فى التاريخ ، ولكنه يؤكد فى الوقت نفسه أن الأفكار كذلك تحرك التاريخ ، أى لا يمكن أن نرد التاريخ إلى علل آليه ، وأن الناس نادراً ما يقدمون على شىء حاسم إلا بتأثير أفكار عامة تعبر عن قيم " ويوتوبيات " ، فأنت إذا انتزعت من التاريخ هذه التطلعات التى اتخذت شكل الصيغة الفكرية ، فما الذى يبقى بعد ذلك؟

إن تاريخ الأفكار يتناول أفكاراً هى بمثابة " إيمان " ومعتقدات " . فنحن لا ننظر إليها ، على حد قول أورتبجا أى جاسيه فى كتابه " التاريخ نسقاً "، كفكرة فحسب ولكننا نؤمن بها " . ولذا فإنها تعد مفتاح أعماق فكر شعب أو عصر. وقد لاحظ باومر أن أهل الرأى يقومون بدور رئيسى فى تاريخ الأفكار . وهذا ما دعاه أن يُحبّذ وصف هذا النوع من التاريخ بالتاريخ الفكرى أو التاريخ الثقافى Intellectual History .ودور أهل الرأى يتضمن تحديد العلاقة بين المفكر وباقى المجتمع . فالمفكر يعكس أفكار أناس آخرين ويزيدها صقلاً ، لأنه على الرغم من عزلته النسبية عن صراعات الحياة العادية مُشارك بفعالية فى متابعتها وتقديم ما يحتاجه المجتمع من فكر نقدى. وتاريخ الأفكار يُعنى فضلاً عن المفكرين مُرَوّجى

الأفكار من عامة المثقفين لأن لهم دوراً فى تعميم الأفكار وترويجها ، وهو من ثم وثيق الصلة بالمثقفين الذين تشمل دائرتهم الواسعة فضلاً عن المفكرين والفلاسفة ورجال العلم وعلماء الدين والباحثين ، ورجال الأدب والفن المبدعين ، ناشرى الأفكار والجمهور القارئ الذكى .

لقد شاع مصطلح " التاريخ الثقافى " أوائل القرن العشرين فى الأوساط الثقافية الأوروبية،وذلك إثر تحول فى النظر إلى العلوم الإنسانية ومناهجها ، شرعه يوهان هويزنجا فى كتابه "أعلام وأفكار " بقوله:"حدث قرب نهاية القرن التاسع عشر أن خُيل للناس أن العلوم الطبيعية بما أحرزته من تطور باهر قد أشارت إلى الأبد إلى المعايير السوية للتضلع الحق فى العلم ، وأنها فرضت من ثم مناهجها على الفكر العصرى بوصفها السبيل الوحيد إلى المعرفة الحقة .. ولكن ما كاد التاريخ يتأثر تأثراً جدياً بهذه المدعيات حتى دوى صوت شعار " ليكن كما هو وإلا فلن يكون " . وقام عدد من الفلاسفة ببحث جوهر المعرفة التاريخية ممن تأثروا بآراء فلهلم دلتاى بين عامى ١٨٩٤ و ١٩٠٥، فأمدوا لأول مرة النظرية العصرية بالمعرفة، بالدراسات الإنسانية، بأساس اختصت به، وحرروها من كل أثر لتحكم العلوم الطبيعية فى معاييرها "[١].

ينطلق " التاريخ الثقافى " من إدراك وجود علمٍ للتاريخ باعتباره روحاً موضوعية ، أى شكلاً لفهم العالم " ، ومن وعى " أن الإغراق فى التخصص التاريخى والمعرفة التاريخية قد يتحول إلى إنتاج لا روح فيه يكاد يكون ميكانيكيا بحتاً . ومن هنا فإن التاريخ الثقافى يستهدف الثقافة . وهو يتميز عن التلريخ السياسى والتاريخ الاقتصادى -كما يلاحظ هويزنجا- بتركزه على مباحث عامة تكون أشد عمقاً ، يتجه فيها العلماء إلى تحديد أنماط الحياة والفن والفكر مجتمعة كلها . ولذا فإن تفاصيله تنسب إلى حقل الآداب والفضائل والتقاليد والتراث الشعبى وآثار الزمان الخالية . وإن أهم عمل للتاريخ الثقافى هو فهم التركيب العضوى للحضارات ووصف مجراها الفعلى والنوعى المحدد .

مهمة مؤرخ الفكر:

إن مهمة مؤرخ الفكر كما أوضح كرين برينتون فى كتابه رجال وأفكار هى

" أن يحاول استنباط مجموعة مركبة من العلاقات بين ما تكتبه قلة من الأفراد ، وما يقوم به فعلاً كثير من الأفراد "، وقد استشهد فرانكلين باومر فى كتابه بما كتبه لورد أكتون سنة ١٨٨٠: " إن الهدف الكبير فى محاولة فهم التاريخ هو النفاذ فى أعماق الأشخاص والتقاط الأفكار . فللأفكار إشعاع ونماء ، ولها أسلاف وأخلاف " . وذلك تعبيراً عن اقتناع باومر " بضرورة " إدراك دور القوى اللاشخصية التى تسيطر على العالم ، أى المذاهب أو الأفكار التى تدفع الأشياء تجاه عواقب معينة بغير عون الدوافع المحلية أو الوقتية العارضة " . وهكذا فإن مهمة مؤرخ الأفكار هى " قيادة حركة الأفكار التى تُعَد علة الأحداث وليست نتيجة لها". ويمكننا هنا أن نستهدف بما قاله يوهان هويزنجا فى محاضرته " المثل التاريخية العليا للحياة " التى استهل بها عمله أستاذا للتاريخ بجامعة ليدن فى مطلع عام ١٩١٥ " أريد أن أحدثكم اليوم عن هذه المُثُل : عن الطريقة التى تؤثر بها المفاهيم التاريخية أو قد تسيطر بها تطور ثقافة أو دولة أو فرد . وأحدثك عن الطريقة التى تُقَدِّم بها الأفكار التاريخية نفسها أحيانا بوصفها أمثلة مباشرة يمكن محاكاتها ، وأحيانا باعتبارها رموزاً ثقافية ملهمة ، وعن الطريقة التى تحاول البشرية ــ إذ تنظر خلفاً وإلى أعلى مثال وهمى للكمال فى الماضى ــ أن تدفع نفسها أماماً بواسطة ذلك المثل الأعلى أو تقضى وقتها تحلم بمثل هذا الوهم الخادع " .

نشأة تاريخ الأفكار وازدهاره:

يُرجع المعنيون بتاريخ الأفكار فى دائرة الحضارة الغربية أصله الحديث إلى القرن الثامن عشر فى " عصر التنوير " الأوربى ، انطلاقاً من أن بعض فلاسفة ذلك العصر من أمثال فولتير حاولوا الربط بين التقدم وارتقاء العقل . ولكن الاهتمام بتاريخ الأفكار لم يلبث أن قلّ في القرن التاسع عشر ، حيث اتجه إلى فروع أخرى من التاريخ وبخاصة التاريخ السياسى ، كما يوضح باومر ، ثم قوى الاهتمام بتاريخ الأفكار منذ نهاية القرن التاسع عشر حين حدث نزاع بين مؤرخى التاريخ الحضارى ومؤرخى التاريخ السياسى حول مجال الدراسة التاريخية ، وطالب الأولون بتاريخ أرحب وأقل تقيداً

بالسياسة يتضمن كل جوانب الحضـــارة ويعطى الجانب الفكرى حقه مع الجـــانب المادى . وقد استفاد تاريخ الأفكار أيضـــاً من التمرد الذى حدث علـــى المذهـــب الوضعى حين برز التحدى لحتمية العلـــم وقال " دلتاى " : " إن العلوم الإنســـانية تزودنا بوسيلة أفضـــل لإدراك الحقـــائق التاريخية والاجتماعية " .

أعطى ولهلم دلتاى الـــذى يعـــد مؤسس تاريخ الأفكار ، الصدارة للتـــاريخ بين العلوم الفكرية ، وجعل العقل البشرى وما يصدر عنه من أفكـــار الفيصـــل فى مسائل التاريخ . وعكف علـــى توطيـــد منهج دراسة تاريخ الأفكار ، ووسع مـــن نطاقة ، بحيث أصبح يضم الفكر العقـــلانى الذى أكده هيغل ، ونتاج الخيـــلل والإدارة الإنسانية كما يتجلـــى فى الأدب والفـــن والدين والفلسفة والعلم . وقـــام دلتـــاى بتأكيد مزايا تاريخ الأفكار عملياً بسلســـلة دراسات باهرة للرؤية التاريخية للعالم . ولم يلبث لورد أكتون فى بريطانيا أن أشـــاد بجهود دلتاى ودعا للعناية بتاريخ الأفكار.

توطدت مكانة تاريخ الأفكـــار فى الربع الثانى من القرن العشرين وسط جـــو سياسى مشحون شهد صراعاً فكرياً عنيفاً فى الغرب . وكان لما حدث من تفتـــت متواصل فى المعرفة فى أوساط الحضـــارة الغربية دور فى تقدم تاريخ الأفكار لصـــد هذا الاتجاه . وأسهم عدد مـــن أفضـــل المؤرخين والفلاسفة وعلماء الاجتمـــاع فى ازدهار تاريخ الأفكـــار مثـــل أرنســـت كاسيرر وأرثر لفجوى الذى ادخل دراسة هـــذا التـــاريخ فى الولايـــات المتحـــدة الأمريكية. وهكذا اكتسب تاريخ الأفكار مكانة بين العلوم الحضارية ، إلا أنـــه لا يزال محتاجاً إلى تحديد أوضح .

يتفق المشتغلون بتاريخ الأفكـــار على أن هذا العلم لا يزال بحاجة إلى تحديد أوضح . ويعمد باومر فى محاولته القيـــام بهذا التحديد إلى إبراز ما يتميز به تـــاريخ الأفكار عن فروع أخرى فى علم التاريخ . فمجاله أرحب من مجال تاريخ الفلســـفة . لأنه ليس مقصوراً على أفكـــار القلـــة أو الموهوبين الذين يعنى بهم تاريخ الفلســـفة. وتاريخ الأفكار مهتم بالأفكار التى تحظـــى بانتشار واسع ، كما قال " لنجوى " وهو يتتبع الأفكار فى أى نطاق يعثر عليها فيه، فمثلاً إذا كانت فكرة التطور العضـــوى

التى بدأت عند علماء الحياة قد انتشرت ، فهى تستحق العناية بها لأنهـــا أثـــرت فى العلماء والفلاسفة واللاهوتيين والمؤرخين، بل وفى الكتّـــاب والفنـــانين . وتـــاريخ الأفكار يختلف عن تاريخ الفلسفة بأنـــه يحاول أن يتجاوز الفكر الشـــخصى إلى الفكر العام ، وهذا يجعله معنيًّا بـــالمفكرين المبدعين للأفكار وبمروجى هذه الأفكـــار على السواء . كما أنه لا يرتكـــز علـــى الأفكار الواضحة: ثمرة الفكـــر العقـــلانى المنهجى ، وإنما يهمه الكشف عن الأفكار التى تكون وراء كل الفكر الصـــورى أو تعد شرطاً له ، فهى بمثابة الافتراضـــات السابقة .

يلاحظ برنتون وهو يحاول تحديـــد تاريخ الأفكار أن مؤرخى الفكر يتعرضون لأفكار الفلاسفة ولآراء يعتنقـــها رجـــل الشارع على حد سواء ، ونصب أعينـــهم محاولة تعرف العلاقات بين آراء الفلاسـفة والمفكرين والمثقفين ، وطريقـــة العيـــش الواقعية للملايين . فحين يتعرض مـــؤرخ الفكر لنظرية " العقد الاجتماعى " مثـــلا لايدرسها من حيث كونها مـــن نواحـــى التفكير المشروع فحسب، بل هو يعـــالج فهم الأفراد العاديين لهـــا وتـــأثرهم بهـــا ورؤيتهم لحكامهم فى ضوئها ، ومـــا إذا كانوا احترموا هذا العقـــد أم مزقـــوه . وهكذا فإنه يحاول أن يستنبط مجموعـــة مركبة من العلاقات بين ما تكتبه قلة مـــن الأفراد وما يقوم به فعلا كثير من الأفراد . ويعتقد برنتون أن مهمة مـــؤرخ الفكـــر أصبحت أسهل بعد اختـــراع الطباعـــة وانتشار الصحف التى يعبر فيها الناس عن آرائهم وتنشر ما تقوله عامتهم، وتقرؤهـــا دائرة واسعة من المثقفين . ويرى برنتـــون أن هناك ما يسوغ حصر تاريخ الفكـــر فيما يعرف بالفئة المثقفة ، وما يقوم بـــه هؤلاء المثقفـــون مـــن أفعـــال وأقـــوال وكتابات، وإن كان تاريخهم لا يشـــمل كل تاريخ الفكر . كما يلاحظ بـــلومر أن تاريخ الأفكار يتميز عن التاريخ الحضارى بأن مجال اهتمامه الأساسى ينصب علـــى أفكار الحضارة بمعناها الأسمى التى تتمثـــل في الفنون والعلوم والفلسفة وفى مســـتويات من التقنية .

ما هى مصادر دراسة الأفكـــار في هـــذا العلم ؟

يقول المشتغلون بتاريخ الأفكار إن هـــذه المصادر عدة، فيها الأدب، وفيها الفلسفة،

وفيها الدين وشعائره وما يحيـــط بـــه فى أوساط العامة من معتقـــدات . ويفيـــد مؤرخ الفكر من بحوث المؤرخ الاجتماعي الذى يـــدرس أسـلوب حيـــاة النـــاس ومعتقداتهم . وهو يتعرف على الأفـواد فى عصر من العصور من خلال هَذه المصـلدر جميعها . فيعمد مثلاً إلى قراءة " حكايات كانتربرى " لشوسر، وهو يدرس أفكـــار العصر الوسيط الأوروبي ، كما يقرأ مـــا كتبه فلاسفة ذلك العصر . وواجبه دومًـا أن يجمع في صورة كاملـــة آراء النـــاس وأفعالهم المحسوسة، وهذا هو حاله أن يعنى عناية خاصة بفلسفة التاريخ ليقدم إجابات عن الأسئلة الدائمة المتعلقة بالمُشـــكلات الكبرى .

يحرص مؤرخ الفكر على تصنيـــف جميع ضروب الأفكار الـــتي تتضـــافر في تأليف ما يعرف بالمعرفة ، على حد قـــول برنتون . وعليه أن يقوم بمهمة البت في أي أنواع المعرفة صادق ، وهو يميز بين المعرفة التراكمية التي نجدها في العلوم الطبيعيـــة والمعرفة اللاتراكمية التي نجدها في الأدب ، وهذا التمييز لا يعني بحال أن ما يصطلـــح عليه بالعلم في الغرب جيـــد نـــافع وأن الأدب والفن والفلسفة رديئة وغير نافعة . ويقع على عاتق مؤرخ الفكر أن يـــدرس آثار هذين النوعين من المعرفة على السلوك البشري ، وأن يتقصى العلاقة بينهما .

إن مؤرخ الفكر في عصرنا مدعو أمام القدر الكبير من الكتب أن يختار . فكيف يختار ويميز المهم من غير المـــهم ، ومـــا يوصف بأنه " حي " متجنبًا ما يوصـــف بأنه " ميت " . "والحي " قد يعـــني مـــا تعتقد الغالبية العظمى من الناس صدقـــه ، على حد قول برنتون ، ويواجه مـــؤرخ الفكر مسألة وجود معرفة قياسية للقيـــم ، وإذا كان العلم ضمن المعرفة التراكميـــة يستطيع أن يبين لنا في كثير من الحـــالات المحسوسة ما هو حق وما هو باطل ، ومـــا هو عملي وما ليس بعملي ، فإننا في إطـلو المعرفة اللاتراكمية نجد أنفسنا بحاجـــة إلى مرجعية نحدد في ضوئها ما هو طيب ومـــا خبيث .

نقد تاريخ الأفكار

لاقى هذا الفرع من علم التاريخ معارضين في دائرة حضارة الغرب، فلم يزدهـــر فى فرنسا ـ كما لاحظ ميشيل فوكو ـ الذي علل ذلك " بالشك الفرنسي لأي اتجـــاه

يهدف إلى الشمول " . وقد أوضح الفرنسي ديرونت عام ١٩٦٠ في كتابه "مشكلات ومناهج تاريخ علم النفس الاجتماعي" موقفه المعارض لهذا العلم واصفًا إياه بأنه " يشبه جرابًا واسعًا ويعرض لكل ما سكت عنه التاريخ التقليدي " قائلاً :" إن تاريخ الأفكار ينعطف بشدة صوب كل من العقلية الخالصة والوجود المجرد للفكرة . وهو علاوة على ذلك ينعزل عن الخلفيات الاجتماعية التي يستمد منها أصله . فمن الواضح أنه يعد مجردًا ومثاليًّا، وتجاهل العمل الاجتماعي للافتراضات العقلية . "ولكن فوكو رأى "أن تاريخ الأفكار وقد أميط عنه اللثام يفصح عن تلألؤ وبريق وعن رواء الحنين للعودة إلى الشفافية الأولى الفطرية، كما يعبر عن توقع الصبح المُلهم فضلاً عن انبلاج الشفق " . والحنين هنا هو للكلمة الإلهية الصافية الواضحة بنور صدقها الذي تستلهم منه الأفكار دليلها وبرهانها . (ميشيل فوكو مغامرة السلب : الأدب وتاريخ الأفكار - مجلة ديوجين العدد ١٥٣/٩٧) .

كان جوهر النقد الموجه لتاريخ الأفكار هو اتهام مؤرخي الأفكار بأنهم ينطلقون من افتراض مسبق يقول:إن العقل أو الروح هو القوة القصوى وراء كل تقدم في التاريخ . ويقر باومر بأن هذا الاتهام صحيح إلى حد ما، ولكن إذا أحسنا الفهم سنرى أن تاريخ الأفكار يقوم بدور الوساطة بين التفسيرين " المثالي " والآلي " للتاريخ . ويعتقد أتباع المثالية أن الفكرة ليست مجرد مستنسخ من أشياء موجودة خارج العقل ، إنها تمثل قوة لها فاعليتها تنبع من العقل ، وتحاول أن تعرض نفسها في العالم المادي " .

لقد عني المشتغلون بعلم الأفكار بتأمل العلاقة بين الفكر والفعل ، فلاحظوا مثلاً أن فكرة الحرية تلد رغبة في استحثاث الفعل الفردي والجماعي - كما يقول فوبيه - وأن الفكر يسعى لكي يتحول إلى فعل كما تسعى الكلمة لكي تصبح لحمًا - على حد قول هانيه الذي رأى فكر روسو متجسمًا في الثورة الفرنسية .

ولكن ما هي الأفكار ؟

أجاب عن هذا السؤال برنتون بأخذ الأفكار بمعنى واسع جدًّا ، كأي مثل ملموس لعمل العقل البشري يمكن التعبير عنه بالألفاظ . وضرب مثلاً بأن لفظة

"آه" التي تصدر عن رجل يؤذي أصبعه بالمطرقة ليست فكرة ، أما قول الرجل " آذيت أصبعي بالمطرقة " فهو تعبير ساذج، ومن ثم فهو فكرة من الأفكار . فإذا قال الرجل " إن أصبعي تؤلمني لأني آذيتها بالمطرقة " فإن قوله يتضمن أفكاراً أشد تعقيدًا . ويمكن إذا تحدث عن الألم والجهاز العصبي، والألم وعلاقته بالإثم ، فإن الأفكار هنا تدخل مجالي العلم والدين. وقد وقف إدوارد كورنيش في كتابه " دراسة المستقبل " The study of the Future " متأملاً في الأفكار ، فقسمها إلى فئتي "المفاهيم " "والنظريات" . وعرّف المفهوم بأنه الصورة الذهنية لشيء ما . أما النظرية فإنها تربط بين مفهومين أو أكثر لتبين العلاقة بينهم . وهو يقول إن المفاهيم والنظريات هي نماذجنا الذهنية . وحين نقوم بمداورة مفاهيمنا ونقلها بطرق شتى يكون التفكير . ويسعد الإنسان حين يكتشف مفهومًا أو نظرية تتطابق تطابقًا جيدًا مع الحقيقة . وهو حين يريد أن يحل مشكلة يسعى كي يعيد إلى وعيه تلك المفاهيم والنظريات المتعلقة بهذه المشكلة .

إن الأفكار هي التي جعلت قيام العُمران والحضارات ممكنًا . وكم من فكرة فعلت فعلها في الاجتماع الإنساني . ومثلٌ على ذلك فكرة تقسيم العمل . ومن الأفكار ما يكون مصدر إلهام وتأثير مثل فكرة الترقي بواسطة الاصطفاء الطبيعي عند داروين التي فعلت فعلها في حياة الغرب خلال القرن التاسع عشر . وللأفكار قوتها التي قد يصعب تقديرها ، ولكنها تمثل مصدرًا ثمينًا للقوة ، وهي من ناحية اقتصادية أكثر أهمية من المواد الخام والمعامل الصناعية وقوة العمل . والعجز عن الفعل كثيرًا ما يرجع إلى الافتقار لا إلى القوة العضلية والمال . والأفكار القوية تحدث تغييرًا جذريًا . والتعليم هو إعادة إنتاج جماعي وتوزيع للأفكار التي تثبت جدارتها . ومن هنا تأتي أهمية العناية بالتنمية المنهجية للأفكار في علم تاريخ الأفكار وعلم دراسة المستقبل على السواء.

مصطلح الفكر في حضارتنا :

آن لنا – بعد أن تعرفنا على الإسهام الغربي في بلورة علم تاريخ الأفكار – أن نتأمل في دلالة مصطلح الفكر في لساننا

العربي ، توطئة للتعرف على الأفكـــار في حضارتنا .

الفكر بالكسر والفتح هو " إعمـــال الخاطر في الشيء" عند صـــاحب لســـان العرب . وهو " إعمال النظر في الشـــيء" عند صاحب المحيط . وجمعـــه أفكـــار . وسيبويه يرى أنه لا يجمع . والفكرة عنـــد الأصبهاني صاحب " المفردات في غريـــب القرآن " " قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم " . والتفكير هو " جولان تلك القوة بحســـب نظر العقـــل " ، وذلـــك للإنســـان دون الحيوان . ولا يقال إلا فيمـــا يمكـــن أن يحصل له صورة في القلب . ولهـــذا رُوي "تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله " . إذ أن الله مُنَزَّهٌ عن أن يوصف بصورة. وقد ورد لفظ " التفكر " في عدة آيات قرآنية. والتفكر عند الجوهري هـــو "التـــأمل". والاسم هو الفكر والفكرة .

مصطلح الفكر عند الجرجاني يعـــني "ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى مجهول" . وذلك في التعريفات.وقد نقل عبد الرؤوف ابن المناوي صاحب " التوقيف في كـــل مهمات التعريف " عن الأكمـــل قولـــه: "الفكر حركة النفس مـــن المطـــالب إلى الأوائل ، والرجوع منها إليها " . ونقـــل عن العكبري قوله " الفكر جولان الخـــاطر في النفس " .

يلفت النظر في تعريفـــات مصطلـــح الفكر في تراثنا أنها تربطـــه " بالخـــاطر " الذي هو عند الجرجاني " ما يـــرد علـــى القلب من الخطاب أو الـــوارد الـــذي لا عمل للعبد فيه " . والخـــاطر في لســـان العرب هو " ما يخطر في القلب من تدبـــير أو أمر " . ويقال خطر بالبال وعلى البـــال إذا وقع في البال والوهم . ويلاحظ ابـــن المناوي صاحب التوقيـــف " أن أصـــل تركيبه يدل على الاضطراب والحركـــة " كما ذكر المطرزي . " والخاطر اسم لمـــا يتحرك في القلب مـــن رأي أو معـــنى ثم سُمي محله باسم ذلك وهو من الصفـــات الغالبة " .

لقد عني علماء حضارتنـــا العربيـــة الإسلامية بدراسة العلاقة بـــين الفكـــر والفعل . وأوجز ابن قيـــم الجوزيـــة في فوائده شرح هذه العلاقة بقوله:" مبدأ كل علم نظري وعمل اختياري هو الخواطـــر والأفكار ، فإنها توجـــب التصـــورات ، والتصـــورات تدعـــو إلى الإرادات ،

والإرادات تقتضي وقوع الفعل ، وكـــثرة تكراره تعطي العادة " . ووصـــف هـــذا القول بأنه قاعدة جليلة . كما أوضح ابـن قيم الجوزية في الفوائد أيضًا ما يمكـــن أن نسميه اليوم آلية هذه العلاقة قائلاً: " اعلم أن الخطرات والوساوس تؤدي متعلقاتهـــا إلى الفكر ، فيأخذها الفكر فيؤديـــها إلى التذكر ، فيأخذها التذكـــر فيؤديـــها إلى الإرادة ، فتأخذهـــا الإرادة فتؤديـــها إلى الجوارح والعمل ، فَتستَحْكم فتصير عادة، فردّها من مبادئها أسهل من قطعها بعـــد قوتها وتمامها " .

كان ممن تأمل هذه العلاقة بين الفكـر والفعل أبو حامد الغزالي الـــذي جعـــل التفكر موضوع الكتاب التاسع من ربـــع المنجيات من كتب إحياء علوم الديـــن . وقد أوضح " أن الفكر هو مفتاح الأنـوار ومبدأ الاستبصار ، وهو شـــبكة العلـــوم ومصيدة المعارف والفهوم . وأكثر النـــاس عرفوا فضله ومرتبته ،لكن جهلوا حقيقتـــه وثمرته ومصدره وموارده ومجراه ومســـوحه وطريقته وكيفيته ، ولم يعلم أنه كيـــف يتفكر وفبماذا يتفكر ولماذا يتفكر ، ومـــا الذي يطلب به ،أهو مراد لعينه أم لثمـــرة تستفاد منه فإن كان لثمرة فما تلك الثمرة أهي من العلوم أو من الأحوال أو منـــهما جميعًا ؟ وكشف جميع ذلـــك مـــهم " . وهذا ما حداه إلى أن يذكر فضيلة التفكر ثم حقيقة التفكر وثمرته ثم مجاري الفكـــر ومسارحه . وقد بيّن أن معنى الفكر هـــو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منـــهما معرفة ثالثة ، وجاء بمثال على ذلك . وميّز بين التقليد والمعرفة التي تأتي من خـــلال التفكر . ولاحظ " أن المعرفة نتاج المعرفـة فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مـع معرفة أخرى حصل من ذلك نتاج آخـر . وهكذا يتمادى النتاج وتتمادى العلـــوم والفكر إلى غير نهاية " .

واضح أن أجدادنا عنوا بـــالنظر في الفكر والتفكر والتفكير ، على غـــير مـــا تصور البعض من أن عنايتهم اقتصـــرت على العلم والتعلم والتعليم ، وقـــد رأو في الفكر سبيلاً للمعرفة، ومكونًا للتصـورات التي تأتي بالإرادات ومن ثم بالفعل .

والآن .. ماذا عن الاشتغال بتـــاريخ الأفكار في حضارتنا العربية الإســـلامية ؟ هل حدث مثل هذا الاشتغال في الماضي ؛ وكيف نراه اليوم في الحاضر ؟

تأصيل تاريخ علم الأفكار :

الحق أننا نجد عناية في أوساط علمائنا جيلاً بعد جيل بمتابعة تاريخ الأفكار، فقد أدرك هؤلاء العلماء أن التطور هو قانون الوجود قاطبة ـ كما يقول د. محفوظ عزام في " بحث مفهوم التطور في الفكر العربي " ، فكان أن درسوا التطور في اللغة وفي الأدب وفي الفقه وفي السياسة ، فلكل زمان دولة ورجال . واهتموا بالتصنيف والمفاضلة والترتيب . كما أن هؤلاء العلماء انطلقوا من فكرة " التجديد " التي أخذت بعدًا عقيديًّا بفضل " حديث التجديد " ليتتبعوا ما حدث من تجديد . وهكذا تستوقفنا كتب الأوائل والطبقات وتراجم أعلام القرون والكتب المختصة بالتجديد والمجددين . وإننا لواجدون في هذه الكتب رصدًا لأفكار فعلت فعلها في حياة الناس عبر العصور عصرًا بعد عصر .

لافتٌ للنظر أن الاهتمام بتجديد الفكر وتاريخ الأفكار تعاظم في أوساط حضَارتنا العربية الإسلامية في القرن الأخير، كما سبق أن ذكرنا في مستهل هذه الدراسة . ومكننا أن نعزو ذلك إلى المرحلة التي عاشتها الأمة وَمَا برز فيها من حاجة لهذا الأمر ، وإلى التفاعل الذي حدث مع الفكر الغربي . وقد رأينا كيف عني الشيخ حسين المرصفي بشرح الكلمات الثمان ، وهي تتصل مباشرة بدائرتي الإنسان والمجتمع . ويتداعى الخاطر كيف استشعر محمد إقبال الحاجة لتجديد الفكر الديني فى الإسلام فأصدر كتابه وطرح فيه أسئلة تذكرنا بما سماه بأوامر " الأسئلة الدائمة " . فما طبيعة العالم الذي نعيش فيه كما صوره القرآن ؟ وما طبيعة الإنسان الذي يواجه هذا العالم؟ وقد أوضح أن الإنسانية تحتاج إلى ثلاثة أمور : تأويل الكون تأويلاً روحيًا ، وتحرير روح الفرد ، ووضع مبادئ أساسية ذات أهمية عالمية توجه تطور المجتمع على أساس روحي ، وكان العالم يعيش فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى .

لقد حاول أبو الحسن علي الحسني الندوي أن يكتب تاريخًا للأفكار في حضارتنا العربية الإسلامية وذلك في كتابه "رجال الفكر والدعوة في الإسلام " الذي ألقاه محاضرات في جامعة دمشق أواخر الخمسينيات.وأذكر أنني حضرت تلك المحاضرات أثناء دراستي الجامعية هناك ،

وقد استوقفني استهلاله إياها بقوله : " من الحقائق الأولية أن الحياة متحركة ومتطورة دائمة الشباب ، مستمرة النمو ، تنتقل من طور إلى طور ومن لـــون إلى لـــون ، لا تعرف الوقوف ولا الركود، ولا تصـــاب بالهرم والتعطل ، فلا يسايرها في رحلتـــها الطويلة المتواصلة إلا دين حافل بالحركـــة والنشاط ، لا يتخلف عن ركب الحيـــاة ولا يعجز عن مســـايرته وزمالتـــه ، ولا تقصر عن خطواته، ولا تنفـــد حيويتـــه ونشاطه " .وجعل محور كتابـــه تـــاريخ الإصلاح والتجديد . وحرص في فصلـــه الأول على أن يبين أن من يؤلف في تاريخ الإصلاح " يجب أن يعيـــش في كتـــب الشخصيات العظيمة ومؤلفاتها وأفكارهـــا مدة ويتذوق أدبها وفكرتها ويتنسم طيبها ، ويحاول أن ينتقل من جوه إلى جو هـــؤلاء الرجال ، ومن عصره إلى عصرهم ، حـــتى يعرفهم على حقيقتـــهم ويصورهـــم في حقيقتهم " . ومثل آخـــر يتداعـــى إلى الخاطر هو قيام زكي نجيـــب محمـــود في مطلع السبعينيات بكتابه " تجديد الفكـــر العربي " في محاولة للإجابة عن ســـؤال ألح عليه طويلاً " يسأل عن طريـــق للفكـــر العربي المعاصر يضمن له أن يكون عربـــيًّا حقًّا ومعاصرًا حقًّا " . ولسان حاله يقول " نعم لابد من تركيبة عضوية يمتزج فيـــها تراثنا مع عناصر العصر الراهن الذي نعيش فيه ، لنكون بهذه التركيبة العضوية عربًـــا ومعاصرين في آن . " وواضح أن تمثُّـــل التراث إنما يتحقق مـــن دراســـة تـــاريخ الأفكار" .

الأمثلة عدة على محـــاولات عربيـــة معاصرة جادة في دراســـة علـــم تـــاريخ الأفكار وكتابته . ومن أحداثها كتـــاب زميلنا المجمعي حسين مؤنـــس " تـــاريخ موجز للفكر العربي " . وقد أوضـــح في مقدمة كتابه أنه ليس لدينا تواريخ كافيـــة للفكر العربي ، وإن كان لدينـــا تواريـــخ للأدب العربي مثل تاريخ الأدب العـــربي لشوقي ضيف . كما أوضـــح في خاتمـــة كتابه أنه عني بتتبع الأفكار والحركـــات وتطوراتها ، واهتم بـــالجوانب الإنســـانية والصدق وأمانة الفكر ومسؤوليته ، ورأى أن أي فكر نافع هو الحرية والعدل ، "لأن النسور المحلقة لا تعيش في الأقفاص ."

نستطيع أن نلاحظ ونحن نقرأ هـــذه المحاولات العربية الجادة في علـــم تـــاريخ

الأفكار أن كلاً من القائمين بها كان لـــه منهجه في مقاربة موضوعه . وغالبًا مـــا يتحدث عن هذا المنهج بإيجاز أو بشـــيء من التفصيل في مقدمة كتابه أو في الفصل الأول منه . وقد جاء حديث أحمد أمـــين على هذا الصعيـــد في كتابـــه" زعمـــاء الإصلاح في العصـــر الحديـــث" شـــديد الإيجاز. ونلاحظ أيضًا أن هناك تشابهًا بين الموضوعات التي جرى تتبعـــها في هـــذه المحاولات . وهي موضوعـــات متصلـــة بالأسئلة الدائمة الخمسة عن الخالق جـــلّ وعلا، والطبيعـــة والإنســـان والمجتمـــع والتاريخ. ولكن كل محاولـــة ســـلكت طريقها في معالجة هذه الموضوعـــات أو بعضها . ويتداعى إلى الخـــاطر مـــا أولاه أمين الخـــولي في كتابـــه " المجـــددون في الإسلام " لتتبع التطور الاعتقادي لـــدى المجددين وما نجمت عنه من آثار في حيـــاة الناس . وقد وصف في حديثه عما قـــدم المجددون للحياة الدينيـــة كيـــف كـــان الأشعري إمام العقيدة " يخلع فوق منـــبر المسجد الجامع عقيدة ، كما انخلعَ مـــن ثوبه فعلاً أمام المشاهدين ، ليلبس ثوبًـــا معنويًّا جديدًا " . والجدول الذي أعـــده للتطور الاعتقادي العام يتضمن القضايـــا التي كانت تشغل الناس آنـــذاك بشـــأن العقيدة . والفكرة التي تتبلور على هـــذا الصعيد هي حق الفهم الصحيح للديـــن وحرية الاعتقاد . وقد مضى أمين الخـــولي في ختام كتابه يتحدث عما قدم المجـــددون للحياة الخلقية ، مـــن شـــعور بـــالوحدة الاجتماعية ، وللحياة العلمية من سعة أفق وإجلال للعلم وتصحيح منهج التفكـــير والفدائية العلمية والتنفير مـــن التقليـــد . وأخيرًا ما قدمه المجددون للحياة العمليـــة من إصلاح العلاقة بين الديـــن والحيـــاة العاقلة وتقديم نموذج رفيع للسلوك .

وبعد .....

فواضح أن هذه المحاولات تسير قدمًا نحـــو تحديد دقيق لعلم تاريخ الأفكار يبين مكانه من علم التاريخ بعامة ، يبلـــور منـــهجًا لمقاربته ، ويرتب موضوعاته ، ويرســـم خطوات العمل في إطاره . ويقينًـــا فـــإن ازدهار هذا العلم يساعد على النـــهوض بمسؤولية تجديد الفكر ، وإشـــاعة منـــاخ نفسي يتجاوز الإحباط، ويحث على الفعل.

أحمد صدقي الدجاني

عضو المجمع المراسل

من فلسطين